

لعبة التخادع في الحياة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

كثيراً ما يخطئ المخادع المحتال إذا حسب أن الناس قد انخدعوا بمكره ، وكلما كان نصيب المخادع من الذكاء أقل كان اعتقاده في قدرته على خدع الناس أعظم فلا يتخذ في وسائل خداعه من الأساليب ما يحتاط به لفظنة الناس إلى خداعه

أما المخادع الذكي فإنه يفتن إلى أن الناس كثيراً ما يتظاهرون بالانخداع ويدعونه إما لكي يعرفوا غاية المخادع ومأربه ، وإما لأن لهم لذة في أن يخدعوا المخادع وأن يضحكوا منه في سرهم ، وإما لأن لهم مأرباً لا يتألمونه منه إلا بإظهار الانخداع له . ومن أجل ذلك ترى المخادع الذكي يحاول أن يستفيد من ادعائهم الانخداع بقدر ما كان يستفيد لو أنهم انخدعوا حقيقة . والقدرة على الاستفادة من ادعاء الناس الانخداع هي سر النجاح في الحياة ، وليست بمستطاعة لكل إنسان . والحياة في كل عمل أو مظهر أو رأى أو مطلب ومكسب وفي كل حاجة من حاجتها يوجد بجانب ما بها من الصدق شيء من الخداع والانخداع وادعاء الانخداع ، وهذه هي أقاليم الحياة الثلاثة أو ثلوثها القدس

وقد تدرك الحيرة الشاب الذي يزاول الخداع في الحياة في أول عهده باللفظة لما يتطلبه النجاح من الخداع ، فإنه قد يبدأ في خداع إنسان فإذا بذلك الإنسان يحاول أن يخدعه بأن يدعي أنه انخدع به حقيقة . وهذا يكون كالنشال الذي يقابل إنساناً يتوسم فيه السذاجة وهو لا يدري أنه نشال مثله فيسلم عليه بيد ويمد اليد الأخرى بخفة إلى ثياب ذلك الإنسان يبحث بها عن حافظة نقوده ، فإذا به يشعر أن يد ذلك الإنسان الأخرى تبحث عن حافظة نقوده هو ، فتدرك الحيرة ويكاد لا يعرف أيهما النشال

وهذا يذكرني بما جاء في كتاب الكامل للبرد عن أحد البعثة بالخلافة ليزيد بن معاوية ، فقد أطلب الناس في مدحه وأسرفوا

إسرافاً جعل يزيد ، وقد كان ذكياً ، يعرف أنهم غير منخدعين بصفات المدح التي يصنعونها بها وهي ليست من صفاته ، وأدرك أن لهم مأرباً في ادعاء الانخداع بخلفه وصفات نفسه ، فالتفت إلى أبيه معاوية وقال : يا أباي هل نخدع الناس أم هم الذين يخدعوننا ؟ فقال له معاوية : يا بُني ، إنك إذا أردت أن تخدع إنساناً فتخدع لك حتى تنال منه ما تريد فقد خدعته . أي أن ادعاء الناس الانخداع وإن كان باطلاً فهو وانخداعهم سيان ما دام المرء يتال منهم ما يريد . وهذه حكمة من معاوية تدل على أنه كان بصيراً بالنفس الإنسانية ومسالكها في الحياة .

وهي حقيقة تحس في كل مجلس من مجالس الناس ، وفي كل بيئة . فهي ليست بالأمر الصعب إدراكه . بل لولا ادعاء كل معاشر أنه انخدع بمعاشره في أمور الحياة ما طابت الحياة . ومن أجل ذلك لا يفت الناس أحداً قدر مقتهم الرجل الذي يريد أن يرفع غطاء الرياء عن الحياة ، ويختلقون له أسباباً يسوغون بها مقتهم . وكأن لسان حالهم يقول له : دعنا نخادعك وخادعنا أنت أيضاً كما نخادعك ، وادع أنك انخدعت بنا ، ودعنا ندعي أننا انخدعنا بك . فإن من الإنصاف ، أو من الذوق ، أو من الرحمة أن يدعي كل عشير أنه انخدع بمشير ما دامت النفوس لا تستطيع الحياة إلا على هذه الأخلاق ، ولا تستطيع أن تغيرها . وكأنما يقول لسان حالهم أيضاً : إن تبادل ادعاء الانخداع مثله مثل من يعطى هدية ، ويأخذ هدية في قدر قيمتها . ومطالب الحياة لا تنال إلا على هذا النمط . أما الذي يريد من الناس أن ينخدعوا له ويفضوا إذا اتضح له أنهم لم ينخدعوا ، بل يدعون الانخداع ، ويمد ادعاءهم الانخداع له عملة زائفة لا يقبلها ، ويطلب منهم العملة غير الزائفة ، أي انخداعهم الحقيقي ؛ ثم هو لا يعطيهم لا انخداعاً ولا ادعاء الانخداع ، فتله مثل من تقدم له هدية فيفض إذا لم يمتد أعظم منها ، وهو لا يعطي مثلاً .

وينبغي للإنسان إذا ادعى الانخداع لمشير أو صديق أو رئيس أو مرءوس أو عميل أن يلازم الحذر من أن يتقلب ادعاؤه الانخداع انخداعاً حقيقياً ؛ فيكون كمن يرى لصاً في منزله فيدعي النوم حتى

صلوات فكر في محاريب الطبيعة للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا أرض الرستمية !

عليك السلام من عيني اللتين تدوران فيك دورات زائفة
زئبقية مروعة وتلقطان الصور من حياتك ومواتك وآفاقك
وذراتك ...

ومن قلبي الذي قدست أسرارته وقدس أسرارك وخلدته
وخلدك ...

ومن فكري الذي صقلته وأرهفته وجعلته يتصل بأصول
الحياة ويرتبط بوثيق الأسباب ...

لقد توسعت نفسي من رحبك وتعددت بتعدد مرئيك ،
ورقرق خواطري نهرك الوديع اللعوب ، في ابتسام الفجر وبكاء
الغروب ، وأحسست سلامة النبات وهدهده وصبره وصمته ونغوه
وإشراقه يدب في جسدي ...

لقد اختلطت فيك الرؤى بالأحلام ، والصحو بالذهول والنام ،
فتوسع عالمي ورأيت في دنياي وفي نفسي غمابي وعجائب ومدخرات
ومكنونات ...

لقد خللت في خيالي صور الأعواد الجافة والخضراء والبري
والوهاد والزهر والمطر حتى لأوشك أن أعد كل أولئك واحداً
واحداً من ترديد النظر وانطباع الصور ...

وهل أنسى كثوس النور والظلام التي أدرتها على عيني
مخضبات بأصباغ الشفقين ، مشمشعات بالندى والطل ، مطيبات
بنفح الزهر وأنفاس السحر ؟

لقد شربت عيناك فيك من النور والظلام فسكرت سكرأ
أبدياً أفرغ في كل خلية من خلاياي نشوة وفتونا
لقد دخلتك كارهاً فراق بندا ... فكنت كالذين يقادون
إلى الجنة بالسلاسل !

ثم انطلقت في رحابك انطلاق رباحك وأطيارك ، أحمل قلبي

يحد من اللص غفلة ليتمكن منه ، فإذا بادعائه النوم قد صار نوماً ،
فينط في النوم حتى يأخذ اللص كل ما يريد من البيت ويتركه ،
وساحبه قد ادعى النوم حتى نام .

وهذا أيضاً شبيه بمن يريد أن يحتال على إنسان فيقدم له
قطعة من الذهب ويدعي أنه وجد كنزاً كي يخدع ذلك الإنسان ،
ويسلبه ماله ، فيدعي ذلك الإنسان السذاجة وأنه انخدع ، ويأخذ
القطعة كي يسأل عن قيمتها ثم لا يعود .

وهو أيضاً شبيه بصاحب الوزق المقامر على الورق المقلوب من ورق
اللعب ، يدعي الخسارة ويعطي اللاعب جنبا كي يستدرجه ويسببه
ماله فيدعي اللاعب أنه ساذج ، ويظهر رغبته في استئناف اللعب ،
والقمار ، ويستأذن في قضاء حاجة ضرورية من حاجات الجسم ثم
يذهب بالجنيه ولا يعود .

وهذه الأعمال لها نظائر وأشباه بالقياس في أعمال الناس
الجليلة الكبيرة الشروعة المحترمة . فالخذر عند ادعاء الانخداع
ضرورة . أما أن يفتر المرء بأنه لا يستطيع أحد أن يخدعه فإذا
كان يراد به التملق لمن يتظاهر مع ذلك بالانخداع لهم فهو دهاء ،
ووسيلة كسب بالسكر . أما إذا أريد به مضايقة الناس وتحريك
عوامل خوفهم وبغضهم فهو سذاجة أو بلاهة ، ولا شيء يدعو
إلى الفشل في الحياة كاعتقاد الناس في إنسان أنه لا يخدع ،
ولا يدعي الانخداع ؛ وهذا الاعتقاد يؤدي إلى بغض الناس من
يستقدونه فيه حتى وإن كان اعتقادهم باطلاً لا أساس له ، وهذا
التظاهر بالانخداع هو ما جعله أبو تمام من أسباب السيادة وسماء
بالتغابي في قوله :

ليس النبيُّ بِسَيِّدٍ في قومه

لكنَّ سَيِّدَ قومه التغابي

وتبعه البحرى فقال :

وقد يتغابي المرء في عظم ماله

ومن تحت بُردَينِ المغيرة أو عمرو

عبد الرحمن شكرى